علم النص: تحريات في دلالة النص و تداوله

الأستاذة : فهيمة لحلوحي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر- بسكرة (الجزائر)

ملخص:

لقد شهدت أواخر الستينيات وبداية السبعينيات تطورا ملحوظا في ميدان الدرس اللساني الحديث نتج عنه ميلاد فرع معرفي جديد عرف باسم علم النص، وموضوعه الأساسي هو النص بوصفه أعلى وحدة لغوية في الدراسات النصية.

يهدف هذا العمل إلى استقصاء بعض إشكاليات مصطلح النص وعلم النص؛ من حيث تعدد مصطلحاتهما وتشعب تعريفاتهما. بالإضافة إلى التعرض إلى اتجاهاته وأسسه المعرفية.

Abstract :

The late sixties and early seventies had witnessed a rapid development in modern linguistics, which led to the rise of a new trend called "Text Linguistics". As the term itself implies, the text, which is considered as the ultimate language unit, is the main focus and subject matter of this discipline. This study aims at the systematic exploration of the controversies over text linguistics as well as the variety of its key terms, definitions, and notions. Simultaneously, we intend to touch on the major currents and basics of text linguistics

تمهيـــــــد:

لما كانت اللغة في جوهرها لا تعني مجرد نظام من العلامات، بل هي في الأساس نشاط تواصلي يقوم على استعمال العلامة اللغوية لإنجاز أفعال تواصلية، لأن وظيفتها الأساسية هي التواصل بإجماع العلماء والباحثين، ومن ثم حظيت باهتمام كبير منذ عقود طويلة، ظهرت خلالها مدارس عديدة، ومن أحدثها المدرسة النصية (النصانية). هذه المدرسة الحديثة قد أحدثت نقلة عملاقة تتجلى في تجاوز المدرسة النصية في تحليلاتها اللغوية النظم المعهودة التي ألفتها المدارس اللغوية السالفة.

وقد انكب اهتمام تلك المدارس على الجملة بوصفها أعلى وحدة لغوية محورية انطلاقا من أن الجملة وحدة نظرية نظامية إطارها اللغة، تنطلق من كفاءة لغوية. وتمثل هذه المدارس اتجاها في اللسانيات هو: لسانيات الجملة. وقد تجاوزت المدرسة النصية الحديثة ذلك لتصل إلى وحدة كبرى هي النص. والنص هو وحدة إجرائية استعمالية إطارها الكلام، تنطلق من إنجاز لغوي أو كفاءة تواصلية.

وهكذا أصبحت المدرسة النصية تمثل اتجاها جديدا في اللسانيات وهو لسانيات النص (Text linguistics) أو اللسانيات النصية (Texttual linguistics) أو نحو النص (Text grammar)، أو علم النص (Textology)، أو علم اللغة النصي/ علم لغة النص (Text linguistics)...إلى غير ذلك.

إن طبيعة النظر إلى هذا الفرع المعرفي الحديث تتسم ببداهة التعدد تبعا لاختلاف الأجهزة المفهومية المعتمدة عليها لاستقصاء بعض إشكاليات علم النص ونظرية النص. مما يطرح تساؤلات جوهرية منها:

– لماذا يتسم النص بتعدد المفاهيم؟ وهل يمكن إيجاد تعريف جامع مانع للنص يحظى برضى المناهج النقدية المختلفة، ومن العلوم الإنسانية الأخرى؟ ما علاقة علم النص بنظرية النص من حيث استعمال النصوص إنتاجا وفهما؟ ما هي الأسس المعرفية التي يرتكز عليها علم النص؟ وما هي مجالاته؟

يسعى هذا العمل إلى توضيح هذه القضايا المطروحة، ومحاولة تقديم مفاهيم ومقترحات عن آلية البحث في علم النص ونظرية النص، من خلال هذه المحاور المتناولة بالبحث والتحليل تارة والنقد تارة أخرى.

المحيط العام لعلم النص:

رافق منتصف الستينيات ومطلع السبعينيات ميلاد فرع معرفي، أجمع الباحثون والدارسون على أنه أحدث فروع علم اللغة. نشـــأ في المحيط اللغوي الألماني على يد مجموعة من الباحثين أمثال هارتمان (P.Hartmann)، هارفج (R Harweg)، وشميث (S.F.Schmidt) وغيرهم. يتزايد الاهتمام به باستمرار في كثير من البلدان. وترجع تسمية هذا الفرع المعرفي "علم لغة النص" "Text linguistic" إلى الباحث الألماني فاينرتش(H.Weinrich–1967). غير أن لعلم النص إرهاصا في أعمال عدد من الباحثين منهم: هاريس (Z.Harris–1952) " Discourse analysis"

وبايك(K.Pike-1954). وكلما نلقاه لدى الباحث الاسباني كوزريو(E.Coseriu-1962):"linguistica del texto". بينما يطلق هارفج (R.Harweg-1974) على هذا العلم: "علم لغة النص" أحدث فرع لعلم اللغة[1]، وتعود بداية تأسيس هذا العلم إلى أعمال مجموعة من الباحثين الألمان، وذلك سنة 1968م بإشراف فايرنينش وهارتمان وغيرهما، أين انعقد أول مؤتمر لمناقشة علم لغة النص في كونستانتس (Konstanz) بإشراف هارتمان، الذي أنشأ بعد ذلك مركزا جديدا للبحث اللغوي النصي، وحددت محاضراته المهمة (Text als linguistiches) معاييره ومهامه في اثني عشر مبحثا(موضوعا)."[2]

هذه إشارة إلى ذلك التحول الجذري في الفكر الذي يتجلى في الاهتمام الجديد بحدوث التجليات الطبيعية للغة، أي النص (text). والقصد منه استكشاف تلك الإجراءات في الاستعمال للغة الاتصال، ولهذا أصبح علم النص علما محوريا للخطاب والاتصال. ومن جهة أخرى فهما أيضا من صلب اهتمام البلاغة لذا يؤكد بعض الباحثين على وجود علاقة وطيدة بين علم النص والبلاغة. وهي حسب فان دايك (v.dijk) " السابقة التاريخية لعلم النص، إذ نحن تأملنا التوجه العام للبلاغة القديمة إلى وصف النصوص ووظائفها المتميزة، إلا أنه لما كان اسم البلاغة يرتبط غالبا بأشكال ونماذج أسلوبية معينة، وأشكال ونماذج أخرى فإننا نؤثر المفهوم الأكثر عمومية علم النص"[3]. بينما يعدّ هارفج (Harweg) " البلاغة والأسلوبية فروعا سابقة (مبشرة) بعلم لغة النص"[4].

وبنظرة فاحصة إلى علم النص يتراءى لنا اتساع أفقه، وشمولية اهتماماته، وترامي أطرافه. فهو يمثل أهم وافد على ساحة اللسانيات المعاصرة. وقد نشأ على أنقاض علوم سابقة مثل لسانيات الجملة والنسقية الأسلوبية، وقبلها بزمن سحيق الخطابة والبلاغة والدراسة الأدبية، والنقد الأدبي، وغيرها من العلوم والمعارف. فهو ثمرة تلك العلوم السالفة، لذا يمكن القول إن علم النص هو علم ناشئ، وحقل معرفي حديث ظهر بديلا لتلك العلوم والمعارف السابقة. ويسمى:" في المجال اللغوي الفرنسي (علم النص Science du texte)، وفي الإنجليزية تسمى: (discourse analysis) ".[5] " لا يخرج الأمر عن هذين الحدين في بقية اللغات الحية مما يجعل ترجمته إلى علم النص في العربية أمرا مقبولا". [6]

ومما سبق يتبين أن علم النص علم واسع يغترف من كل العلوم والمعارف الإنسانية حتى أصبح علما متاخما ومتداخلا " في صورة وثيقة مع علوم أخرى كعلوم الشعر والبلاغة والأدب والأسلوب والاجتماع والنفس وغيرها؛ لأن هذه العلوم تشتغل بالنصوص من أجل غايات تختلف باختلاف وجهات النظر الخاصة بالدراسيين ".[7]

يتضح من القول السابق أن علم النص يتسم بالتداخل المعرفي والتشعب، وهذا أمر منطقي مسوغه ذلك الهدف الجوهري الذي تسعى إليه هذه العلوم والمعارف وعلم النص جميعها، وهو فهم النص. وإلى جانب التداخل المعرفي تضاف سمة التشعب الذي يتجلى في تعدد مفاهيمه، وتصوراته، ومناهجه ومقولاته.

أولا: علـــــــــم النـــــــص:

1- علم النص وإشكالية المصطلح

لقد عرف علم النص تعددا في المصطلح، وهذا حال كل علم حديث النشأة متخلق من أمشاج متداخلة ومتباينة الأصول، ومن مصطلحات علم النص التي تعج بها مؤلفات النصانيين: لسانيات النص، علم اللغة النصي، نحو النص... فجل هذه المصطلحات تعني هذا الفرع المعرفي الحديث الذي يحدده برند شبلنر (B.Spillner) بقوله:" وهو ما يرمز له بنحو النص أو علم اللغة النصي، أو بنظرية النص، أو بعلم النص، وذلك بناء على وجهات النظر المختلفة "[8]. ويضاف إلى هذا قول زتسيسلاف وأورزنياك (Zdzislaw wawrzyniak): " ونطلق على علم النص اللغوي مصطلح علم النص (Text Wissenschaft) (Textologie)"[9]. وهذا ما يراه حسن بحري بقوله:

"علم لغة النص" أو "علم اللغة النصي"، أو "علم النص بشكل عام"[10].

2- يشير تعدد واضطراب مصطلحات علم النص إلى عدم استقرار هذا المصطلح عند الغرب من جهة، وإلى تعدد ترجمات المصطلح إلى العربية من جهة أخرى. وهناك من الباحثين من يجعل إشكالية المصطلح في علم النص مرتبطة بشأن "نحويات النص "Grammars of the text" التي لم يكتمل تطورها بعد"[11].

مفهوم علم النص :

على الرغم تعدد مصطلحات علم النص إلاّ أنها تبدو مكملة بعضها ببعض، وهذا ما سيتبين من خلال هذه التعريفات.

يعرف ريتشاردز (J.Richards) علم النص في المعجم اللساني بأنه: " أحد فروع علم اللغة الذي يهتم بدراسة النصوص المنطوقة والمكتوبة. وتوضح هذه الدراسة طريقة تنظيم أجزاء النص وترابطها لتصبح كلا مفيدا ".[12] وأما دافيد كريستال (D.crystal) فيعرفه بأنه " الدراسة اللغوية لبنية النص"[13]، بينما يعرفه نيلس (Nils) بأنه: " دراسة للأدوات اللغوية لتماسك الشكلي والدلالي للنص، بالإضافة إلى أهمية السياق، ودور الكفاءة المعرفية للمتلقي في ممارسته لتحليل النص" [14]، ويعرفه هارتمان (Tartmann) بأنه: "البحث النصي بوصفة وحدة نظرية وفعلية بحثا سيميوطيقيا وفلسفيا وفينومينولوجيا؛ بل لغويا أيضا" [15].

تؤكد هذه التعريفات التي تقدم ذكرها أن علم النص هو أحدث فرع في علم اللغة وموضوعه الأساسي هو النص المكتوب أو المنطوق، ومن اهتماماته حد النص، وإبراز سماته النصية (التماسك والانسجام) [*]، وهي النواة المركزية في البحث النصي بوصفها المعيار الفارق بين النص واللانص.

ويكمن الفرق بين التماسك والانسجام في أن مجال التماسك البنية السطحية المتكونة من وحدات لغوية مترابطة بواسطة تضافر مجموعة من الأدوات كالإحالة والحذف والتكرار... إلى غير ذلك. وأما مجال الانسجام فهو عالم النص المتكون من تصورات وعلاقات دلالية، كالعموم والخصوص، والجزء والكل...الخ. وهو معطى في النص من طرف القارئ.

ثانيـــــا: نظرية النص :

لم يكن حظ مصطلح النص أحسن حالا من مصطلح الجملة فثمة

اختلاف شديد بين اتجاهات المناهج الحديثة التي تناولت مصطلح النص. أضف إلى ذلك تباين اتجاهات علم النص نفسه، لذا يرى بعض الباحثين " أن تعدد الأشكال النصية ليس في صورها الكبرى؛ بل في صورها الصغرى الجزئية يحول دون تعريف دقيق للنص ولم يكن الجانب الكمي وحده مسؤولا عن هذا الإخفاق، بل يسهم الجانب الكيفي بقدر كبير في ذلك أيضا، إذ أن جوانب حدوده وتكويناته ودلالاته تشترك جميعا في عملية وضع الحد الفاصل له، بل تداخل جوانب أخرى غير منظورة إلى جانب تلك الأبعاد المنظورة في هذا الجدل ".[16]

وهذه محاولة لاستقصاء مفهوم للنص في إطار علم النص باختلاف اتجاهاته وتصوراته.

I- تعريف النص

1: النص في المعجم (مادة نصص):

يعرف ابن منظور النص بقوله " النص: رفعك الشيء. ونص الحديث ينص نصا: رفعه، وكل ما أظهر فقد نص. وقال عمر بن دينار: ما رأيت رجلا أنص للحديث من الزهري؛ أي أرفع له وأسند. يقال: نص الحديث إلى فلان، وكذلك نصصته إليه، ونصت الضبية جيدها؛ رفعته "[17]. ومن معاني النص في هذا القول: الرفع والإظهار، وهما سِمتا المستوى السطحي للنص. وها هنا يحضرنا التعريف الاصطلاحي للنص لأحد الباحثين العرب المعاصرين القائل: " النص يطلق على ما به يظهر المعنى، أي الشكل الصوتي المسموع من الكـــلام، أو الشكـــل المرئي منه، عندما يترجم إلى المـــكتوب"[18]. وينحصر مفهوم النص عند غيره في أنه:" لا يتجاوز دلالته

المركزية الأساس للدال (النص) وهي الظهور والانكشاف " [19]. المعنى المعجمي السابق يتضمن –أيضا– معاني الوضوح والانكشاف للنص التي تؤكد معنى الثبات على حد هذا التعبير" إذ أن كل ما أظهر عرفت له هيئة وصورة، لا يجوز أن يرى بخلافها، كأن تعرض عليه الزيادة، أو النقص، أو الإضافة، أو التعديل، لذا استعمل الراوي عمر بن دينار – في مرويته – لفظي: أرفع وأسند. فهو يرفع الحديث إلى صاحبه، ويسنده إليه دون التدخل فيه، لا باللفظ ولا بالمعنى " [20].

ومما ورد في اللسان قوله " نص المتاع نصا: جعل بعضه على بعض" [21]. ينفتح هذا القول على هذه المعاني: الضم والتضام والتركيب، وهي سمات الكلام المتراكب ليصبح نصا.

ومن معاني (نص) المذكورة في اللسان: البلوغ والاستقصاء لقوله " وأصل النص أقصى الشيء وغايته. ونص الرجل نصا إذا سأله عن شيء حتى يستقصي ما عنده، ومن نص كل شيء: منتهاه قال الزهري: النص أصله منتهي الأشياء، ومبلغ أقصاها".[22]

ومن قول اللسان في النص : " النص الإسناد إلى الرئيس الأكبر، والنص التوقيف، والنص التعيين على شيء ما ".[23] ففي هذه الألفاظ الإسناد والتوقيف والتعيين معنى الثبات. والتثبيت للنص سمة جوهرية له، إذ النص يثبت عند ملتقى هذه النقاط المحددة لإطاره، وهي: الفاتحة(الابتداء)/المتن (الوسط)/الخاتمة(الانتهاء). لذا لا يجوز التغيير فيه سواء بالحذف أو بالإضافة أو التقديم والتأخير. إذن فهو محفوظ وثابت (قار) من أي تغيير. فهو الثابت المطلق ولهذا قال اللسان "ومنه قول الفقهاء: نص

القرآن ونص السنة أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام".[24] بمعنى النص الثابت باللفظ دون إضافة أو حذف فيه.

ومما أورده اللسان – أيضا – من معاني النص: الاقتصاد اللغوي بقوله: " نص الأمر شدته ".[25] وللفظ الشدة أيضا الإحكام في صنعة النص في حالة الاستقصاء التام.

وبناء عليه فإن مفهوم النص من المنظور العربي يتسع لهذه المعاني: الرفع والإظهار (الظهور) والوضوح والاستقصاء التام والتركيب والترتيب والاقتصاد التي تحقق له سمة الثبات. وبناء على ما تقدم ذكره فالنص ليس ملفوظا أو مكتوبا ينهض على علاقات غير كاملة؛ فهو مستقل ومكتمل في شكله (المستوى السطحي). وتام في المضمون (المستوى العميق). ومن ثم فالنص هو القول اللغوي الذي تتجلى فيه خصائصه الجوهرية (الثبات، الترتيب/التركيب/الاستقصاء/الاقتصاد) لتمييزه عن كل ظاهرة غير مكتملة أو غير تامة كاعتبار هلمسليف (L. Hjelmslev) كلمة " نار" نصا. أو عند بعض الباحثين في اعتبار عبارة "ممنوع التدخين" نصا. انطلاقا من مبدأ الاكتمال والاستقلالية، وترتبط هاتان السيمتان بطرح أحد الباحثين اللغويين المحدثين في تحديد النص بأنه:" القول اللغوي المكتفي بذاته، والمكتمل في دلالته ".[26] ومن ثم فكل ظاهرة لا تتضمن هذا الشرط لا تعتبر نصا؛ بل هي اللانص.

2: النص في المعجم الأجنبي (Texte/Text)

تعني كلمة (Text) النسيج، وهي مشتقة من أصل لاتيني (Textus) وتعني "النسيج" وفعلها(Texere) " ينسيج" .[27] بينما يتضح معنى كلمة "النسيج" من خلال توظيفها في كتاب "مدخل إلى علم اللغة النص" للباحث فولفجانج هانيه من وديتر فيهفيجر على حدّ تعبيرهما: "يمكن أن يسمى نصـــا من اللاتينية (Textus)، وتعني أصلا "النسيج" أو "الأسياخ المظفرة".[28]

: النص في قاموس اللسانيات: يعني " مجموع الملفوظات اللسانية الخاضعة للتحليل، فهو إذن عينة من السلوك المكتوب والمنطوق ".[29] يتمحور هذا التعريف حول استعمال اللغة في صورتيها: المكتوبة/ المنطوقة وهو تعريف عام.

4: النص في الموسوعة اللغوية: يحدد كولنج سمات لمفهوم النص في النقاط التالية:

4-1- النص موضوع رمزي – علائقي تغلب عليه السمة الكلامية، أو شكل مكتوب يدويا، أو مطبوع في شكل هيئة مادية.

4-2- العناصر المعجمية في النص الرمزي – العلائقي الذي تسيطر علية السمة الكلامية هي العناصر المسيطرة التي تحمل المعنى.

4-3- النصوص هي عناصر الاستعمال اللغوي، وليست ضمن نطاق النظام اللغوي.

4-4- هناك تمييز بين نصوص كاملة الاستقلالية والنصوص المستقلة جزئيا.

4-5- تحقق النصوص الرمزية – العلائقية ذات الصبغة الكلامية معايير

النصية إذا تم احترام التوقعات الآتية:

يعبر الموضوع في حالة تخاطبية معطاة أو مفترضة في شكل متصل (وتام) لحالة من الحالات، وتحقق وظيفة تخاطبية معطاة أو مفترضة، وله تركيب كلامي متصل وكامل ".[30]

يثير هذا التعريف عدة قضايا:

أ- النص هو علامة لغوية: دال/مدلول تحكمها علاقة اعتباطية تتحقق بفعل النطق أو الكتابة.

ب- يتجسد النص بالدوال المستعملة للتعبير عن المعني(المدلول).

ج- النصوص هي ممارسة لغوية إطارها الكلام.

د- الفارق الجوهري بين النصوص المستقلة كلية والنصوص المستقلة جزئيا هو احتضان النصوص في نصوص أكبر منها، مثل علاقة القصيدة بالديوان.

ه- المعايير النصية في هذه النقطة:

- وحدة اتصالية إنجازية في إطار موقف (الموقفية)، ذات معنى.
- تحقيق الإعلامية والقصدية.
- التضام (السبك) (Cohésion)، وهو خاص بالمستوى السطحي للنص، باعتباره نصية قائمة على الصياغة.

ومما سلف فالنص في الموسوعة اللغوية هو علامة لغوية تتجسد بالكتابة أو بالمنطوق، وهي وجهان: أحداهما يمثل المستوى السطحي للنص بواسطة الدوال، وثانيها المستوى العميق للنص الذي يتمثل في المدلولات. وتحكمه معايير نصية هي: الموقفية/ الإعلامية/ القصدية/ السبك.

II: مصطلح النص في نظرية النص

1- التعريف الاصطلاحي للنص

1-1- مصطلح النص في معجم المصطلحات.

فضل كلينز (Kleines) نظرية النص بدل مصطلح النص؛ لأن مفهوم النص متضمن في نظرية النص. ومن ثم يكمن مفهوم النص في قوله " إن النص بوصفه وحدة كلامية تامة مستقلة نسبيا يحققها المتكلم بهدف معين، وفي إطار ظروف مكانية وزمانية محددة ويفرق بينها مجرد توال لأي عدد من الجمل".[31] يبدو جليا أن كلينز(Kleinse) في تحديده للنص ينطلق من منظور نظرية التواصل اللغوي الشامل مركزها المستوى التداولي للنص.

1-2- مصطلح النص من منظور النصانيين

إن النظر في مؤلفات النصانيين يثبت عددا هائلا من التعريفات للنص التي يغلب عليها طابع الاختلاف والتنوع، وأحيانا التضارب والإبهام، وحتى الآن لم نعثر على تعريف جامع مانع للنص.

هذه محاولة موجزة لطرق باب تعريف النص في البحث النصي، لضيق مساحة البحث سيتمركز حدّ النص حول هذه الجهات: مستويات التركيب والدلالة والبرجماتية للنص عند بعض النصانيين.

1-2-1- النص من المنظور التركيبي: ينصب اهتمام البحث في هذا المستوى على الأشكال اللغوية المحضة للنص؛ أي الاهتمام بنظام اللغة والنص. يشمل هذا التوجه على بعض الباحثين الذين ركزوا في تعريفهم للنص على ظاهرة التماسك النحوي للنص.

يعرف برنيكر(Brinker) النص بأنه " تتابع مترابط من الجمل، ويستنتج من ذلك أن الجملة بوصفها جزء صغيرا ترمز إلى النص ويمكن

تحديد هذا الجزء بوضع نقطة أو علامة استفهام، أو علامة تعجب، ثم يمكن بعد ذلك وصفها على أنها وحدة مستقلة نسبيا ".[32] يعتبر برينكر (Brinker) الجملة وحدة بناء النص، يمكن تحديدها بعلامات شكلية (استفهام، تعجب..) وهي تتسم بالاستقلالية ولغموض هذا التعريف يعلق برند شبلز(B.Spillner) قائلا:" هذا التعريف كما هو واضح دائري، بمعنى أنه يوضح النص بالجملة والجملة من خلال النص، كما أنه غير منهجي علميا، لغموض الرموز والعلاقات التي يتضمنها اتساع الوصف، ومن ثم لا يمكن تطبيقه ".[33] بينما يعرف هارفج (Harweg) النص بأنه " تتابع مشكل من خلال تسلسل ضميري متصل لوحدات لغوية ".[34] وأما فاينريتش (Weinrich) فيري أنه " تكوين حتمي يحدد بعضه بعضا؛ إذ تستلزم عناصره بعضها بعضا لفهم الكل".[35]

يتضح من خلال التعريفين السابقين أن الباحثين ركزا على التماسك النحوي للنص من خلال وسائل لغوية. يبدو أن التماسك النحوي غير كاف لتحديد النص لذا " فالنص بكليته لا بد أن ينطوي على مجموعة مميزة من الخصائص التي تفضي إلى التماسك والانسجام ".[36]

النص – إذن – بهذا المعنى هو وحدة كلية متماسكة نحويا، ومنسجمة دلاليا.

1-2-2- النص من المنظور الدلالي: يتم النظر إلى النص من هذه الزاوية إلى مضمونه، ومن ممثلي هذا الاتجاه فـــان دايك (V.Dijk) الذي يهدف من خلال تصوره للنص إلى بناء نحو توليدي للنص، ينطلق من افتراض أساسي نصي–موضوعي، فيعرف النص

بأنه " بنية سطحية توجهها وتحفزها بنية عميقة دلالية " [37]. تمثل البنية العميقة العنصر الجوهري في النص: إذ تظهر البنية المنطقية المجردة للنص وحدّ البنية العميقة يكمن في أنه "يمكن أن ينظر إلى البنية العميقة على أنها خطة نص ما".[38] وتبرز اهتمامات هذا الاتجاه في إشكالية السمات الدلالية وبنية النص. فالنص وحدة دلالية تتجاوز دلالة المفردة والجملة. ومن ثم كان موضع عدة تصورات تتعلق بما يسمى بالأبنية النصية الكبرى وقواعدها؛ وهي في حقيقة الأمر مفاهيم منطقية ودلالية. و"عن طريق البنية الكبرى استطاع علماء النص مقاومة الفكرة الشائعة عن أن التماسك النصي يتحدد فحسب على مستوى علاقات الترابط بين المتتاليات والجمل، لأن هذا المستوى الأخير لا يقدم سوى الأبنية الصغرى، وتظل البنية الكبرى في التمثيل الكلي الذي يحدد معنى النص باعتباره عملا كليا فريدا".[39] والبنية الكبرى "وفق طبيعتها الدلالية تمثل البنية العامة الدلالية لنص والصورة مجردة في البنية الكبرى ــ وعلى حين يجب أن تلتزم التتابعات قيود الترابط الأفقي، لا يجب أن تفي النصوص بهذه القيود فحسب وتبدو كأنها تتابعات جملية؛ بل بتلك القيود الخاصة بالترابط الكلي".[40] إذن البنية الكبرى هي ذات طبيعة دلالية مرتبطة بالتماسك الكلي للنص.

أما ڤريماس (Grimas) فيستعمل مصطلح التناظر (Isotopie) بمعني " إعادة سيمات سياقية في النصوص، وبذلك ينشأ دور أساسي للتناظر الدلالي في التقسيم السيمي الأحادي لوحدات المعجم المحتمل تعدد سيماتها، تتكون من خلال الظهور المتكرر لسمات دلالية (أي ليست سمات سياقية فقط) في النصوص تنقسم فيها السمات المتعددة والتكافؤات المتعددة كتعبيرات غير

تنصيصية (الوحدات المعجمية) إلى سيمات مطردة متداخلة في عملية التنصيص وفي حركة الفهم " [41].

يحدد ڤريماس النص من خلال علاقات التناظر الدلالي التي تشتمل على هذه العناصر: التماسك(النحوي/ الدلالي)، والتكرار (اللفظي/المعنوي)، والإحالة (النصية/المقامية)، بالإضافة إلى السياق (وسائل التماسك الفنية للنص).

إذن تكمن أهمية التناظر الدلالي في تحقيق العلاقات النصية في النص. ويمثل أداة لوصف البناء الدلالي للنصوص. وفي السبعينيات إلتفت بعض النصاينين أمثال كالماير(Kallmayer)، وكلاين(Klein)، وهارتمان (Hertman)، ونتسر(Netzer)، وزيبرت(Siebert) وغيرهم إلى أداة التناظر واعتبروها " المحدد الدلالي لوصف وتحليل النصوص.

1-2-3- المنظور التداولي (البراجماتي) للنص: يستند هذا الاتجاه إلى النظرية التواصلية التي تقوم على نظرية الفعل الكلامي. ومن ممثلي هذا الاتجاه، جلينتس (Glintes)، وشميث(Schmidt)، وسانج(Sandig) وغيرهم. النص في تصور هؤلاء الباحثين هو فعل كلامي يحقق التفاعل والاتصال الاجتماعي. لذا يشترط تحويل الاهتمام المنصب على الكفاءة اللغوية للنص إلى الكفاءة التواصلية. ومن مرتكزات نظرية التواصل اللغوي الشامل تلك النظريات الجزئية المتمثلة في نظرية بناء النص التي تهتم بإنشاء النصوص، ونظرية النص التي تهتم بنتائج إنشاء النص. ومن ثم يحدد النص بأنه " فعل لغوي (معقد) يحاول المتكلم أو الكاتب أن ينشئ به للنص علاقة تواصلية معينة مع السامع أو القارئ ".[42]

بينما جلينش (Glintes) يحدد النص بأنه "تكوين لغوي أنشأه منشؤه بالتزام مطابق للمقصد – التزام بغرض ذي تأثير لاحق مساو في الأغلب ليس في شريك فحسب؛ بل في عدد أكبر، نعم عدد كبير من الشركاء ".[43]

أما شميث(Schmidt) فيرى أن:" النص هو جزء حدد موضوعيا (محوريا) من خلال حدث اتصال ذي وظيفة اتصالية (إنجازية)".[44]

ومن خلال التعريفات التي تقدم ذكرها في الاتجاه التواصلي، فالنصوص تفهم من خلال الفعل الكلامي الذي يعد جزء من فعل الاتصال يؤدي وظيفة تواصلية، أو أنه فعل اتصال من خلال علاقته المعقدة بين مكونات لغوية، ولغوية اجتماعية، وغير لغوية في موقف تواصلي.

وبعد هذه النظرة في قضايا النص ومحاولة تحديده، يمكن القول إن مفهوم النص مفهوم زئبقي، بمعنى أنه لا يمكن إيجاد تعريف جامع ومانع وشامل للنص، لأنه يتسم بالتعقيد والتشعب، وتؤكد محاولات التعريف الواردة هنا أن نحو النص (المنظور التركيبي) ودلالة النص (المنظور الدلالي) وبراجماتية النص (المنظور البراجماتي) تمثل فروعا لعلم النص.

وعلى الرغم من التعدد والتباين في تعريفات النص عند النصانيين تبعا للتعدد والتباين في المدارس اللغوية التي ينتمون إليها، أو الاتجاهات التي يمثلونها، فإن هناك قاسما مشتركا بين جل تلك التعريفات – السالفة الذكر– هو التأكيد على خاصية تماسك النص. وعليه كان النص – عند معظمهم– عبارة عن "نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببغض"[45].

ثالثـــــــا: اتجاهات علم النص:

يتفرع علم النص حسب الدراسات والأبحاث الحديثة إلى إتجاهين

أساسيين هما:

الاتجاه الأول: علم النص القائم على أساس النظام اللغوي.

لقد نشأ هذا الاتجاه في أحضان علم اللغة النبيوي والنحو التوليدي التحويلي الذي ظهر في فترة الستينيات. وهو يتمركز حول ظاهرة التماسك النصي من زاوية البناء السطحي للنص لذا " فمفهوم التماسك النصي المركزي بالنسبة لعلم لغة النص قد فهم نحويا محضا".[46] بمعنى أن علم النص في هذه الفترة لا يزال رهين لبعض قيود نحو الجملة/لسانيات الجملة.

الاتجاه الثاني: علم النص القائم على أساس نظرية التواصل

لقد ارتبط هذا الاتجاه بالمنهج التداولي الذي نحى منحى الاتجاه اللساني التحليلي. وقد مثلت المدرستان الهولندية والألمانية أحسن تمثيل. يرتكز هذا الاتجاه على لسانيات التواصل التي تهتم بكل مظاهر التفاعل الرمزي بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع الإنساني، سواء أقامت هذه المظاهر على أسس لغوية أم غير لغوية. وتستند هذه النظرية الجامعة على عدد من المفاهيم التواصلية والمقولات اللسانية المترابطة، منها:" مفهوم لعبة الأفعال التواصلية، مفهوم "الحكاية"، ومفهوم "الاقتضاء"، ومقولتي "الإحالة والدلالة"..الخ"[47]

وهاهنا تساؤل يطرح نفسه: كيف يعرّف شميت (Schmidt) النص بوصفه النتاج الإنساني من المنظور التواصلي؟

إن الإجابة على هذا التساؤل يحيل إلى أن النص عند شميت يحظى بمكانة خاصة، يشمل هذا الاهتمام النص المكتوب والنص المنطوق، والنص الأدبي وغير الأدبي، بمعنى نصوص اللغات الطبيعية.

لذا يعرف شميت النص بقوله:" نسمي النص (Text) كل قسم لغوي يتجلى داخل فعل تواصلي (أو داخل لعبة أفعال تواصلية)، يجمعه موضوع واحد، ويقوم بوظيفة تواصلية قابلة للمعرفة، أي أنه يحقق طاقة إنجازية قابلة للمعرفة (من طرف شركاء التواصل)، إذ بفضل الوظيفة الإنجازية (الاجتماعية التواصلية) وحدها، تغدو مجموعة من الرسائل اللغوية المحكمة القواعد نسقا نصيا متماسك يعمل بنجاح أثناء التواصل الاجتماعي. وسوف نسمي نصوصا صغرى (Intext) الرسائل التي تحققه أفعالا إنجازية على حدة، والتي تكون رغم ذلك قابلة للإدماج. إضافة إلى ذلك، تلحق النصوص بالمخَاطبين الذين أنجزوها. ومن ثم، فإن الرسائل التي تتقاطعها تدخلات المخاطبين والتي يعتبرها المخاطب لاحقة بنفس الفعل الانجازي الذي هو بصدد إنتاجه، تعتبر نصا واحدا." (48)

يتمحور تعريف شميت للنص حول محورين أساسيين هما:

أ- المحور الأول: يتركز على وحدة الموضوع.

ب-المحور التداولي: يرتكز على عنصرين متلازمين، هما:

1- المخاطِب/المتكلم: منتج الطاقة الإنجازية.

2- المخاطَب: صاحب أثر الطاقة الإنجازية.

يتضح من هذين المحورين ارتباط مفهوم النص عند شميث بالوظيفة التواصلية التي تتموقع حول هذه الثنائية التلازمية: المخاطِب(الغرض)⇦المخاطَب(الاستجابة). وهذه إحالة إلى وظيفة الخطاب من منظور الخطاب البلاغي القديم والتي تكمن في الإقناع.

مما سبق يتبين أن كل التعريفات السابقة على جانب من الأهمية، غير

أنها لم تتمكن من إيجاد تعريف جامع مانع للنص، إذ إن كل منها سمة محددة من سمات النص، ويترك أخرى مهمة.

لذا فقد اخترت من لبين تعريفات النص يبدو مشتملا على كل الصفات المميزة للنص، واقصد بذلك تعريف ديبوجراند ودريسلر لمفهوم النص من حيث إنه حدث تواصلي. وقد اقترح الباحثان لفهم النص وإنتاجه واستعماله أن تتوافر له سبعة معايير تحقق للنص نصيته، بمعنى أن يكون النص نصـــــا. أو بعبارة الأزهر الزناد "ما يكون به الملفوظ نصـــــا"

وتتمثل هذه المعايير في:

1- السبك(Cohession).

2- الإلتحام(Coherence).

3- القصد(Intentionality)

4- القبول(Acceptebility)

5- رعاية الموقف(Situationality).

6- التناص(Intertextuality)

7- الإعلامية(Informalitivity).

ويمكن تصنيف المعايير السبعة في:

1- ما يتصل بالناص في ذاته: وهما معيار السبك والالتحام.

2- ما يتصل بمستعملي النص: سواء أكان منتجا أم متلقيا، وذلك معيارا القصد والقبول.

3- ما يتصل بالسياق الخارجي للنص، وذلك معايير رعاية الموقف والتناص والإعلامية. (49)

ولقد ارتبط هذا الاتجاه بالتداولية مع مطلع السبعينيات، ويمثل محور ارتكاز هذا الاتجاه في نظرية الفعل الكلامي. ويعتبر النص في هذا الاتجاه وحدة لغوية تواصلية لذا فهو " يدرس الوظيفة التواصلية للنصوص".[50]

رابعـــــا: مجالات علم النص:

بوصف علم النص مجاوزا لوحدة البحث التقليدية(الجملة) باعتبارها أكبر وحدة في التحليل والوصف اللغويين، فقد وجد هذا العلم–علم النص– ضالته في وحدة بحث هي النص بوصفها أعلى وحدة لغوية في التحليل والوصف والاستعمال اللغوي.

يتفرع علم النص حسب تصور أحد علماء النص إلى ثلاثة مجالات[51] وهي تمثل فروع علم النص.

1- علم النص النظري (نظرية النص): ومن اهتمامات هذا الفرع قضايا النص النظرية، مثل علم بناء النص (تشكيل النص) باختلاف أنواعها وأشكالها.

2- علم النص الوصفي (تحليل النص): بوصفه علما عمليا فهو يقوم بتحليل النصوص وتصنيفها.

علم النص التطبيقي: يرصد هذا الفرع عمليات استخدام النصوص واستيعابها وتعليمها.

إذن هذه هي فروع علم النص التي تتناول الظاهرة النصية بوصفها موضوعها الشرعي والوحيد في البحث.

خامسا: مهمة علم النص:

لما كان علم النص واسع النطاق ومتداخل الاختصاصات فهو" يهتم بوصف وتحليل أشكال نصية وأبنية نصية مختلفة، وشروطها ووظائف وتأثيراتها المتباينة، والمحادثات اليومية، والأحاديث العلاجية، والمواد الصحفية والحكايات والقصص، والقصائد ونصوص الدعاية والخطب، وإرشادات الاستعمال والكتب المدرسية، والكتابات والنقوش ونصوص القانون والتعليمات"[52]. بينما صلاح فضل يرى أن مهمة علم النص هي" وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة، وشرح المظاهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة، كما يتم تحليلها في العلوم المتنوعة"[53]. وعلى الرغم من هذا فإن مهمة علم النص" لا يمكن أن تكمن في صياغة أو حتى في حل المشكلات الخاصة بكل العلوم النظرية والاجتماعية تقريبا، بل يدور الأمر حول عزل جوانب محددة في هذه التخصصات العلمية، أي الأبنية واستعمال أشكال نصية للاتصال وتحليلها داخل إطار متكامل ومتداخل التي يجب أن يشمل عليها أساسا كل نص في لغة ما حتى يمكن أن يوظف بوجه عام بوصفه نصا. وهنا يتصل الأمر بالأبنية النحوية التركيبية والدلالية والبرجماتية والأسلوبية والهيكلية وعلاقتها المتبادلة. إذن يتصل بأداء النص ووظيفته، أي تحليل خصائص إدراكية عامة تمكن من إنتاج معلومة نصية معقدة وفهمها" [54].

يبدو جليا من خلال هذه المقاربات أن صياغة نظرية كاملة وشاملة لعلم النص لم تتجسد بعد، ولكن يمكن رصد العلاقات النصية من خلال

الاستناد على هذه المقارابات جميعا، من خلال علوم البلاغة، والنقد، والأسلوبية، واللسانيات العامة، واللسانيات الاجتماعية، وعلم النفس(المعرفي- والإدراكي)، والسيميائية، والتداولية، لأن القاسم المشترك بين هذه العلوم والمعارف هو النص.

الخـــــاتمة:

وخلاصة يمكن القول بأن علم النص يتأسس على نظرية النص ويشترطها لتكتمل دراسته وتحليلاته وتفسيراته وتأويلاته.

الهوامش و المراجع

[1] زتسيسلاف واورزنياك: مدخل إلى علم النص – مشكلات بناء النص، ترجمة وعلق عليه سعيد حسن بحري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 1424هـ/2003م، ص36.

[2] سعيد حسن بحري: علم لغة النص – المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1424 هـ/2004م، هامش 104، ص 248.

[3] توان، أ فان دايك: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات)، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحري، دار القاهرة، ط2، 2005م، ص 23.

[4] زتسيسلاف واورزنياك: مدخل إلى علم النص، ص36.

[5] فان دايك: علم النص، ص14.

[6] صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني الكويتي، 1992م، ص248.

[7] حسن بحري: علم لغة النص، ص94.

[8] برند شبلز: علم اللغة والدراسات الأدبية (دراسة الأسلوب، والبلاغة وعلم اللغة النصي)، ترجمه محمود جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ط1، 1987م، ص183.

[9] زتسيسلاف وأورزنياك، مدخل إلى علم النص، ص35.

(10) نفسه، ص93.

(11) جزيل فلانسي، النقد النصي، ترجمة رضوان ظاظا، مجلة عالم المعرفة، الكويت، مايو 1997م، ص247.

(12) Jak richards, john Plat and Heidiwiper : longmon dietionory of applied linguistics, longmon, london, 1987, p 292.

(13) David crystal: The combridge Encyclopedia of language, combridge university press, combridagr, new – York, 19877, p116.

(14) Nils Erik Enkvist : text linguistics for the applier, An orientation, 1987, P 25 – 26

(15) سعيد حسن بحري: علم لغة النص (نحو آفاق جديدة)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2007م، ص21.

(*)- التماسك(Cohesion): "وهو يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية(Surface) على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق(Progressive Occurrence)، بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي (Sequential Connectivity)، حيث يمكن استعادة هذا الترابط. ووسائل التضام تشتمل على هيئة نحوية للمركبات (Phrases) والتراكيب(Clauses) والجمل. وعلى أمور مثل التكرار والألفاظ الكنائية(Pro-forms) والأدوات والإحالة المشتركة (Co-reference) والحذف والروابط(Junction)".

– الانسجام(Coherence):"وهو يتطلب من الإجراءات ما تتنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي (Conceptual Connectivity)

واسترجاعه، وتشمل وسائل الالتحام عن العناصر المنطقية، كالسببية والعموم والخصوص(Class Inclusion)، معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف، السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية، ويتدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص (Text Presented Knowledge) مع المعرفة السابقة بالعالم(Prior Knowledge of the world).

روبرت دي بوجرند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2007، ص103

(16) ينظر: نفسه، ص 19/18.

(17) ابن منظور(جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994م.

(18) الأزهر الزناذ: نسيج النص- بحث فيما يكون به الملفوظ نصا-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1993م، ص12.

(19) نصر حامد أبو زيد: النص، السلطة الحقيقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1995م، ص 150.

(20) عمر أبو خرمة: نحو النص نقد النظرية... وبناء أخرى، عالم الكتب الحديثة، إربد - الأردن، ط1، 1425هـ /2004م، ص25.

(21) ابن منظور: اللسان، مادة نصص.

(22) المصدر نفسه.

(23) المصدر نفسه

(24) المصدر نفسه.

(25) المصدر نفسه.

(26) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص232.

(27) ينظر: مجدي وهبة، مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، 1974م، ص566.

(28) فولفجانج هانيه من ديتر فيهفيجر، مدخل علم اللغة النصي، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، الناشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، لرياض، 1419هـ، ص4.

(29) J.Dubois : Dictionnaire de linguistique et des sciences du langages « la tipografica S.P.A « Italie dépôt légal Septembre 1999, P482

(30) ن، ي كولنج: الموسوعة اللغوية، ترجمة محي الدين حميدي وأخرين، جامعة الملك سعود، المملكة السعودية – الرياض، 1421هـ، مج1، ص207.

(31) زتسيسلاف وأورزيناك: مدخل إلى علم النص، ص35.

(32) حسن بحري: علم لغة النص، ص96.

(33) برند شبلز: علم اللغة والدراسات الأدبية، ص188.

(34) زتسيسلاف وأورزنياك: مدخل إلى علم النص، ص55.

(35) حسن بحري: علم لغة النص،ص99..

(36) John lynos : Linguistics semantics, An introduction combridge unuversity Press, 1995, P263.

(37) Dijk.T.A. van: Some Aspects of text Grammar, the Hague mouton, 1972, a P 123.

(38) Ibid, P 206

(39) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 266.

(40) فان دايك: علم النص، ص75.

(41) زتسيلاف وأورزنياك: مدخل إلى علم النص، ص57.

(42) كلاوس برينكر: التحليل اللغوي للنص – مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة سعيد حسن بحري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة، ط1، 1425هـ /2005م، ص25.

(43) زتسيلاف وأورزنياك: مدخل إلى علم النص، ص59.

(44) حسن بحري، علم لغة النص، ص99.

(45) ينظر: جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص69–70.

(46) المرجع نفسه، ص25.

(47) نزار التجديتي: إنتاج النص في نظرية زيغفريد شميت، مجلة علامات، ج41، م11، رجب 1422هـ سبتمبر 2001، ص376.

(48) نفسه، ص377–378.

(49) روبرت ديبوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص103–106. ص35.

(50) زتيسلاف وأورزنياك: مدخل إلى علم النص، ص35.

(51) المرجع نفسه، ص66.

(52) فان دايك: علم النص، ص11.

(53) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص247.

(54) حسن بحيري: علم لغة النص، ص125.